

هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب وللزلزلة التي حدثت في اواسط القرن الثاني عشر اليد الطولى في تجريب مبانيها اما ضعفها فابتداءً من حين خربت البلاد التي حولها

ماهية الفلسفة

كان علماء اوربا في الثلث الاخير من القرن الماضي يكرمون الفلسفة كأنها ربة العلوم كلها وكانت دور العلم في ألمانيا قاعدة العلوم العليا غاصّة بالطلبة يسمعون اقوال فلاسفتها وقلوبها كأنها وحي مُنزل . وكثير البحث الفلسفي في كل مكان واصحابه يحاولون حل المسائل الكبرى مسائل الحياة . واشتاق الناس الى كشف الغوامض واشتدّ بهم هذا الشوق حتى لم يصبوا على البحث في امور انكون بالتأني فاكتنوا بالاوضاع الفلسفية الباحثة عمّا وراء الطبيعة ويتضح ما كان للفلسفة من السطوة على عقول الناس في ذلك العصر من قول ثردرك وشر الذي قال ان كل قوى الشبان كانت تصرف الى حل المسائل المويضة ولم يكن الشاب يحسب انه بلغ اشدّه ما لم يفهم حقيقة حرية الارادة والقضاء والقدر وإلا فلا يحق له ان يتزوج ذلك العصر كان عصر الفلسفة الذهبي لكنه كان حاملاً في اردائه بزور التخلله . فان الفلاسفة انكبار مثل نيتشي وشلنج وهيجل حدّوا الفلسفة بانها تركيب تصوّري للكون من مبادئ اولية اكتشفها بعض العقول الذكيّة . وجرّوا مجرى الفيلسوف سبنوزا في استنتاج نتائج عدوها لازمة من اوليات خبيراً ضرورية وانغمضوا عيونهم عن شهادة الحواس وحسبوا انهم يستطيعون تعليل المحسوسات بانها نتائج لازمة عن بعض المبادئ الاولية . وقالوا ان لا قيمة للاختبار من هذا القبيل لان غاية ما يستفاد منه تحقيق الاستدلال الفلسفي بل ان شائع انكر عليه هذه الفائدة وقال ان الاستنتاج العقلي لا يحتاج اثباته الى اختبار مادي لانه ثابت لذاته فان كان الاختبار لا يتطبق عليه فالخطأ في الاختبار لا فيه . وهيجل لم يتطرق الى هذا الحد في انكاره فائدة الاختبار لكن اعتماده الاكبر كان على الاستدلال العقلي . وكان اولئك الفلاسفة يجهلون ان لا حدّ لما يدركه العقل فهو يدرك الاوليات كلها بالبدهة ثم يعلم ما بيني عليها بالاستدلال المنطقي وعلى ذلك بنى نيتشي وشلنج وهيجل فلسفتهم فحامت بناء عظيمًا فخيمًا ولكن لا اساس لها في الارض وما لا اساس له في الارض يتلاشى في الهواء وبينما كان الفلاسفة الالمانيون واتباعهم يبرهنون بالاقية المنطقية ما يجب ان يكونه العالم اخذ علماء الطبيعة يحاولون ان يعرفوا ما هو العالم واذا بصفير الآلة البخارية يقظ اهل

الاحلام والاهام ونهبهم الى التقسّم العظيم الذي تقدمته العلوم الطبيعية باتباعها اساليب البحث والاخبار فقامت القيامة على فلسفة هيبن وأفل نجمها حالاً لان الناس كانوا قد منوا الابحاث الخيالية وودوا ان يبسطوا من سحب الخيال الى ارض الحقيقة . فاشتت سكك الحديد واتسع نطاق التجارة واقمت المدارس الصناعية والتجارية واتجبت قوى الناس كلها الى اكتشاف النوايس المادية وتوضيحها واستخدامها وقامت العلوم الطبيعية مقام الفلسفة في اذهان الناس وادخل ليبيغ الكيماوي المعامل الكيماوية الى المدارس الالمانية واشتهر الكسندر همبلت شهرة فائقة وشهرته عالية محنة وكشفت المكتشفات المعمة في فرنسا ومانيا اكتشها السيولوجيون مثل ماروور وفلورنس ومجندي ولوره ولونجه واضاعت الفلسفة اكليها واحتقرها الذين كانوا يعبدها ويتنون بمدحها وبالفوا في ذمها كما بالفوا قبلاً في اضرائها ولم يبق احد يجاهر بصدقتها . وعرف الفيلسوف بانة الرجس الذي يتكلم عن امور لا يعلمها كلاماً لا يفهمه احد . فانكر علماء الطبيعة كل علاقة لم يها واستقروا بانفسهم واعتروا بانة يمكنهم نفي الفلسفة من كل المباحث الطبيعية فسرروها تفسير لا تنطبق على قوانين العقل تفسير رفضها العقلاء قبلهم منذ زمن طويل وصار المذهب المادي هو المذهب الغالب مع انه ابعد المناهب عن القوانين العقلية امور مثل هذه اضعفت عزائم الفلاسفة والدل ابن النشل ولذلك لا يستغرب ما ظهر من ضعهم على اثر ما اصابهم من الخذلان حتى اضطرتت ان يثبت ان للفلسفة شائناً ما وانها تستحق ان تبقى بين العلوم

لكن ما حل بالفلسفة من الازدراد كان وقتياً الى اجل محدود لان الميل الفلسفي في الانسان ارسخ من ان يزول منه كما قال شوبنهاور . واسمى ما في الانسان سؤاله عن علل الاشياء ولا يتبع عن هذا السؤال الا يمنع عقله عن البحث والاستقصاء وهذا امر يمز ادراكه ولذلك فالفلسفة ليست ابنة عصر معلوم بل هي ابنة كل العصور وسميت آخر فيلسوف حينما يموت آخر انسان ما لم يكن ذلك الانسان ابله لا عقل له . وما من احد في رأسه ذرة من العقل الا وهو يبحث ولو قليلاً عن العالم الذي هو فيد ونسبتو اليه وعلة ما يراه والغاية منه . ويوجب عن هذه المسائل على حسب ادراكه . والعلوم الطبيعية المحضة لا تقوم من غير شيء من الفلسفة ولو انكرت ذلك وحاولت التخص منه كما تحاول التخص من داء خبيث . الا يوجد شيء من الفلسفة في مذهب النشوء اولا يوجد في مذهب الجوهر الفرد الذي قال به اولاً فلاسفة اليونان قبل المسيح باربع مئة عام وهل زالت منه الفلسفة لان علماء الطبيعة ينوهوا وضخوه . أو ليس رد كل الظواهر المادية الى اصلها المادة والقوة امرأ فلسفياً كما وراء الطبيعة . أو ليس ان مذهب

بقاء المادة والقوة وعدم تلاشيها من الامور الفلنسية . أو ليس ان رد كل القوى الى قوة واحدة انما هو محاولة الوصول الى المبدأ الاول الذي يتوقف عليه كل شيء . اي امر اقرب الى الفلسفة من ذلك . ولقد شاعت الآن الرغبة في رد المركبات والتخالفات الى ما تظهر به وحدتها وفي إيجاد اصل عام يمكن ان نعلل به حوادث الكون لان هذه الرغبة مفروسة في نفس الانسان وليس في طاقته ان يقاوم ما في نفسه من الميل الى توحيد ما يعلمه بالاخبار وأدراك كل الموجودات وكشف العلل التي نعلل بها حوادث الكون كلها

وقد يستطيع اهل كل علم على حديثه ان يكتشفوا الاسباب الاولى لقضايا ذلك العلم وحده ولكنهم لا يستطيعون ذلك الا اذا غصوا الطرف عن سائر العلوم فيظرون حينئذ جزءا من الحقيقة لا الحقيقة كلها . فقد يمكن ان تنسّر ظواهر الطبيعيات بفرض القوة والجواهر النردة المتماثلة ولكن هل يستطيع الكيمائي ان يفهم ظواهر الكيمياء من غير ان يفرض ان هذه الجواهر مختلفة الصفات . وهل يستطيع الباحث عن الحياة (البيولوجي) ان يعلل الحياة بالقوى الميكانيكية الخضة او هل يستطيع ان يوفق بين ما يرى في الموجودات الحية من دلائل القصد وبين المذهب الميكانيكي . وهل يستطيع الباحث في علم العقل والوجدان ان يفسر افعال العقل ببيادى العالم الطبيعي اي بالجواهر والحركة . لا بد من علم يجمع هذه العلوم المتفرقة ويوفق بينها يتناول كل الحوادث الطبيعية ويوحدها ان امكن بان يجمع مبادئ العلوم المختلفة ويحصيها ويقابل بعضها ببعض ويظهر ما تختلف فيه ثم يوفق بينها ان امكن . هذا العلم هو الفلسفة . والحاجة اليه ماسة وهي ظاهرة لا تخفى وان كان قد قدر للناس ان يتفلسفوا فيجب ان يحكموا فلسفتهم . ولا يجوز لنا ان نترك حل المسائل المهمة مسائل الحياة ولا ان نحيها على الصدفة او على اناس لاعلم لهم ولا مهارة او هم من الغرض بحيث يجعلهم غرضهم على حلها حسب اهوائهم . ومن تعلم احسن تعلم وتدرّب احسن تدرّب وصبّ نواه العقلية على موضوع بحثه ليجد يرجل معضلاته . امور مثل هذه ارجعت الناس الى الفلسفة والناس كلهم في حاجة اليها الا من لا يعقل منهم . ان من يقيس الزمن اللازم لمرور المجرى العصبي في عصب ساق الضفدع لا يستفيد شيئاً من ذلك لان مجرد العلم بالشئ لا يفيد ما لم يبنى عليه حكم من الاحكام اي ما لم يُستختم مرفاة الى اكتشاف قضية كلية مبنية عليه وهذا الامر اي البلوغ الى فلسفة الاشياء والافعال صار شائعاً الآن في كل العلوم الطبيعية والتاريخية بل في العلوم الدينية والرياضية ايضا

ثم انا اطلقنا اسم الفلسفة في السطور الماضية على ما يسمى بعلم ما وراء الطبيعة او علم

المبادئ الأولى أو الأصول الأولى التي تنبئ عليها حوادث الكون ولكن الفلسفة لا تقتصر على ذلك بل غرضها اكتشاف الحق أو الحقيقة فلا تستطيع أن تعطل ما يُعرف من حوادث الكون ما لم تعرف كثيراً من هذه الحوادث معرفة صحيحة وحوادث الكون على نوعين نوع مادي ونوع عقلي ولذلك سميت العلوم إلى قسمين علم طبيعي وعلم عقلي مدار الأول البحث عن الاجسام المادية حية كانت أو غير حية وكل ظواهرها . ومدار الثاني البحث عن ظواهر العالم الباطني اي النفس او العقل . ويطلق على علم العقل الفلسفة العقلية او علم النفس (سيكولوجيا) وهي تبحث في تحليل افعال النفس او العقل او الوجدان وتبويبها وتنسبها وتعليقها بيني علم المنطق وفلسفة الجمال (استك) والاخلاق وفلسفة الديانة . ومن مباحثها ماهية الشعور والادراك والتصور والتذكر والهوى والغريزة والاندفاع والانتباه والارادة . كل هذه افعال من افعال العقل او الوجدان . ومن مباحث المنطق فعل العقل وقت الاستدلال والوصول الى القضايا التي يعدلها صحيحة وما هي قواعد البحث والاساليب التي يجري عليها العلماء في بحثهم اي ما هي قواعد اقياس والاستقراء . وعلم الجمال يبحث عما يحتملنا بحكم بهال بعض الاشياء او يقبها بعقمتها او بمقارنتها وما هي النوايس والمبادئ التي بيني عليها الاتقان في المصنوعات الجميلة . وعلم الاخلاق يبحث عن مزايا الفضيلة وماذا يجب العمل الواحد صواباً والثاني خطأ وما هو المقياس الذي نقاس به الاديئات . نشعر ان بعض الاعمال خطأ او حرام فما هي حقيقة هذا الشعور وما هو اصله وكيف يتقوينا وبالاختصار ما هي النوايس المتسلطة على العالم الادبي وكيف تظهر في حياة الانسان ثم ان علم الاجتماع يرتبط بعلم السيكلوجيا وعلم الاخلاق ويقدم لها كثيراً من الافعال وعلوم ان مداره فكر الانسان وشعوره و ارادته من حيث هو عضوي في جسم الاجتماع الانساني والغاية التي وجد لها في جسم الاجتماع والوسائط التي يستعملها ليبلغ هذه الغاية . والاجتماع الانساني نفسه جسم حي له غاية يسعى اليها ووسائط يستعملها ليبلغ هذه الغاية . فما هي هذه الغاية وما هي تلك الوسائط وكيف تنال الاولى بالثانية وما هي الاجزاء التي يتكوّن منها هذا الاجتماع ما هي عاداته وقوانينه وكيف نشأت وكيف نمت . ذلك ما يسمى بعلم السيكلوجيا اي علم الاجتماع الانساني والغاية التي يقصدها هذا الاجتماع لا تنال الا بانتظام الحكومة او الدولة فما هي اشكال الحكومات وكيف تبلغ غايتها . هنا يدخل علم السياسة الباحث عن هذه المسائل ونسبته الى علم الاجتماع الانساني (السيكلوجيا) نسبة هذا العلم الى علم النفس (سيكلوجيا)

ثم ان فلسفة الديانة تبحث عن الامور الواقعة ضمن اخبار الانسان التي نعدها دينية فهي من هذا القبيل فيع من علم النفس لكنها لا تقتصر على ذلك بل تبحث عن الاساليب التي تظهر

في الأمور الدينية وتبع ارتفاع الأديان لكي تكتشف البادي الأول التي تشترك فيها
 فعل الفيلسوف ان ينتبه الى العلوم العقلية الأساسية كعلم النفس وعلم المنطق وعلم
 الاخلاق وعلم الجمال وفلسفة الديانة . وهذه العلوم إنما تفرق عن العلوم الطبيعية في مواضعها
 لا في اساليب بحثها لأن العلوم كلها طبيعية كانت او عقلية تبحث عن الظواهر وردها الى
 النوايس المتسلسلة عليها . وما من علم يقتصر على ذكر الناموس او القانون بل كل العلوم تحاول
 كشف علاقة النوايس بعضها ببعض وربطها بعضها ببعض ويردها الى اسبط اشكالها .
 فالفيلسوف الطبيعي يرد كل ظواهر المادة الى اصل واحد وهو القوة . واما العالم الحيوي
 (البيولوجي) فيعتبر عليه رد ظواهر الحياة الى الاصول الميكانيكية الحسية . والفيلسوف
 النفسي يرى امامه امور لا تعلم بما يعرف عن جواهر الاجسام يرى انه يستحيل عليه ان
 يعلم القوى العقلية بانها افعال مادية محضة . وقد استطاع العالم الطبيعي ان يعلم حركات
 الكواكب في مداراتها بنوايس الحركة ولكنه لا يستطيع ان يعلم كيفية وجود اللاميا (ادنى
 انواع الحيوان) ولا اسبط انواع الشعور وما احسن ما قاله الفيلسوف كنت في هذا المعنى وهو
 " ان الانسان يستطيع ان يقول اعطني مادة فاصنع لك منها ارضاً مثل ارضنا ولكنه لا يقدر
 ان يقول انه يصنع منها اسبط انواع الثبات او الحشرات ولا ان يفسر بالمادة كيفية وجود
 الارادة في الدودة "

ان العلوم الطبيعية تحاول رد الافعال المختلفة التي تبحث فيها الى اصل واحد فتقول ان
 الحرارة والطور والصوت والكبر ناتية كلها انواع من الحركة او القوة فهل الشعور ايضاً نوع من القوة
 او له اصل آخر وهذا الاصل هو اصل كل الافعال الطبيعية والعقلية .

هذه مسائل تستحق البحث لكن صعوبة حلها باختلاف الباحثين فيها يشيران الى امر آخر
 وهو ان العقل ميال بطبيعته الى توحيد الامور ورد الافعال الى اصل واحد او الى الاصول الاولى
 فما هي قائمة هذا الميل في الوصول الى حقائق الاشياء وهل يمكننا ان نصل الى هذه الحقائق
 من ان العقل وهو آلة المعرفة ولا ما كان علم من العلوم امر تامض يحتاج الى التفسير والتعليل
 ونحن نحري على اسلوب واحد في كل العلوم وهو رد المعلومات الى عللها لان عقولنا تضطرنا الى ذلك
 افعالاً بوجود حيل لطيف العقل او لا تصل الى العلة الاولى التي لا علل لها بل هي عللها
 العقل . وما هو مفاد هذا الميل فيما الى طلب العليل لكل المعلومات يوماً هي المعلومات وكيف
 تكون صحيحة فان العلوم المختلفة تستعمل معلوماتها عن غير ان تبحث عن صحتها اياً الفلسفة فلا
 تسلم الا بما تصححها صحة ووضح التمسك . العالم الطبيعي يضطر ان يفرض وجود افعال

لا يبحث بها لكي يعلل بعض ما يقع في عالم الحس فهل يجوز ذلك اي هل يحق لنا ان نفرض وجود موجودات لا تدرك بالحس او تقتصر على ما يدرك بالحس . وهل نقول ما قاله دي بوا ريموند في الكلام عن المادة والقوة وهو ان حقيقتهما لا تدرك او نقول ما قاله هيكل وهو انه ليس في الطبيعة ما لا يمكن ادراكه ذلك وامثاله من المسائل التي تجل بالبحث عن اصل المعارف . وهذا البحث يهد السبل للفلسفة العقلية وما وراء الطبيعيات ويطلع الباحث المدقق على ما يزجي في فروع العلوم من كل رأي فظير . وكثيراً ما نرى العالم الطبيعي يهزأ بالفيلسوف مستعملاً عبارات وادلة لم يعرفها لولا الفلسفة . ومثل الفلسفة وعلماء الطبيعة في ذلك مثل الشيخ الذي حملته السندباد البحري على عاتقه من غير ان يشعر به وتاريخ الفلسفة يدل على انها قد ارتقت ارتقاءً يتتاً وما وقع فيها من الخطأ يفيد الباحثين لانه يحذرهم من الوقوع فيه ثانية فان من يعرف السبل الذي لا يوصل الى المطلوب يستفيد من معرفته في اكتشاف السبل الموصل اليه

(ترجمت للمتتطف من مقالة في جريدة العلم العام الاميركية للاستاذ فرنك ثي)

البانيا " او بلاد الارناؤوط

ليس في هذه الايام بلاد تهتد دعائم السلم في اوربا اكثر من البلاد الابانية وهي قريبة من مراكز العمران يحدها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوباً ولها ساحل طويل يتد على البحر الادرياتيكي المسمى عند العرب ببحر البنادقة الفاصل بينها وبين ايطاليا ومع ذلك لا يعرف عنها اكثر مما يعرف عن مجاهل الصين لصعوبة التوصل فيها . فاعدها مدينة اشقودره على بحيرة تسمى بهذا الاسم يوصل اليها بطريق مركبات تبدي من بلدة كطاروفي دماطيا مارة بستينا عاصمة الجبل الاسود الى ان تنتهي عند ريجكا من قرى هذا الجبل فينقل منها الى باخرة تعبر البحيرة الى اشقودره ويلزم لقطع هذه المسافة يومان على الاقل . ويمكن الوصول الى اشقودره من بلدة مدو وهي ثغر الباني على الادرياتيكي

وتنقسم بلاد البانيا الى مقاطعات صغيرة يسكنها قبائل من الارناؤوط . ويتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار . والبلاد تابعة للدولة العلية وفيها حامية من

(١) معرفة بعض تصرف عن مقالة نشرها في إحدى الجلات الانكليزية سائحان من الانكليز فيجولا في بلاد البانيا الساخلة من عهد قريب وطرأ ما رأاه فيها مرأى العين